مسؤولية الشعب العماني
في الحفاظ على وحدته

سماحة الشيخ
أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عُمان

الكلمة الطيبة
مسقط ـ سلطنة عُمان

جميع الحقوق محفوظة للكلمة الطيبة

@kaleematayba
kaleematayba@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الفضل الواسع والشرع الجامع، سبحانه شرع لعباده ما يؤلف بين فئاتهم المتدابرة ويجمع بين قلوبهم المتنافرة، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله خلق فسوى وقدر فهدى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، أرسله الله على حين فترة من الرسل، وانقطاع من الوحي، وضلال من العقول، وتشتت من الناس، فعلم به من الجهالة، وهدى به من الضلالة، وبصر به من العمى، وجمع به من الشتات، وأنقذ به من الردى، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان الذين جمعهم الإيمان ووحدهم الإحسان فكانوا خير أمةٍ أُخرجت للناس وعلى من سلك مسلكهم إلى يوم البعث والحساب.

أما بعد، فإن الله تعالى اختص الجنس البشري بمزايا فطرية ارتقت به عن حضيض سائر الأجناس الحيوانية وذلك بما آتاه الله من نور العقل وأولاه من كمال الطبع فتهيأ لأن يحمل مسؤولية الخلافة في الأرض والريادة في الانتفاع بمنافع الكون وقد زاده الله تعالى هداية وتكريماً بما وجه إليه من خطابه على ألسنة رسله الذين بعثهم الله بشرعه وحملهم أمانة دينه الذي كلفهم الاستمساك بعروته وتطبيق تعاليمه والصدع بالدعوة إليه بين أقوامهم وأُممهم.

وذلك من أهم الضرورات لسلامة البشـــر في معاشهم وسعادتهم في معادهم، فبالتمسك بقيم الدين عقيدةً وشريعةً يكون الإنسان موصولاً بربه ومتصلاً بجنسه ومنســـجماً مع المنظومة الكونية التي فطرها الله سبحانه على الخضوع المطلق له، والتسبيح بحمده ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد كان من حكمة الله تعالى البالغة أن فطر البشـــر على الاجتماع لتداخلهم في المصالح وتشـــاركهم في المنافع فلا يمكن أن يستغني أحد عن أحد مهما أُوتي من نفوذ في الأرض وغنى في الحياة وحصافة في الرأي وسعة في العلم وبسطة في الجسم وبصيرة في العقل وميزة في الفكـــر والتدبير، بل كلما توفرت له المزايـــا كان أحوج إلى غيره وذلك ليتـــم التكامل بيـــن الناس ولتنطبـــع حياتهم بطابـــع المدنية والاجتماع:

الناس للناس من بدوٍ ومن حضر بعض لبعض وإن لم يعلموا خدم

ومـــن المعلوم قطعـــاً أن من خلال هـــذا التداخل في منافـــع الحياة ومصالحها والتشارك في جوانبها المادية والمعنوية لابد من أن يقع خلاف بين الأفراد والجماعات بما طبعت عليه النفـــوس من حب الذات ومن نزعة الاستئثار والاستقلال وقد يؤدي بهم إلى التجاذب والتدافع، فيئول بهم الأمر إلى فتن، إن شب ـ والعياذ بالله ـ ضرامها امتدت ألسنته فأكلت الأخضر واليابس، وأهلكت الحرث والنســـل، وأبادت الطارف والتليد،

وكثيراً ما يصلى موقدها سعيرها فيكابد من حر أتونها كمثل ما يكابد الذين استهدفهم بإيقادها أو أشد، فإن النار إن اشتعلت أتت على كل ما يحيط بها ولم تفرق بين موقد وموقدٍ له.

لذلك كان الناس بحاجة إلى نظامٍ يلتفون من حوله ويحتكمون إليه، وما من نظام إلا ويعروه من الخلل والعيوب ما يذهب بأثره المطلوب ما عدا النظام الرباني الذي نزل به شرعه المحكم وتضمنه حكمه العادل فإنه وحده هو الذي يسد كل خلل ويقضي على كل مشكلة ويقيم الناس على طريقةٍ سواء تذهب بما في نفوسهم من الحزازات وتقضي على ما بينهم من خلافاتٍ وتشد بعضهم إلى بعض حتى يكونوا كالجسد الواحد.

وهذا ما ترجمه واقع الأُمة الإسلامية في الرعيل الأول فقد انصهروا في بوتقة الإيمان، وكانوا مثالاً للعالم كله في توحد المبادئ والأهداف، والآمال والآلام، والفكر والسلوك، وذاب في حياتهم كل ما خلفته الجاهلية من تنافر وشقاق، وأحقادٍ وعداوات حتى يخالهم من ينظر في أمرهم أن دورة الزمن دارت عليهم فطوتهم ثم نشرتهم بفطرةٍ غير التي فطروا عليها من قبل، وطبائع تباين ما كانوا مطبوعين عليه من حب الذات والرغبة في التحكم في شأن الغير، ولم يكن ذلك إلا تجسيداً منهم لقيم الدين الذي آمنوا به، وتعاليم الكتاب الذي أوتوه، وأخلاق النبي الذي اتبعوه، وبهذا تمكنوا من دحر قوى الباطل التي كانت تتحكم في مصير الإنسانية واستطاعوا تحرير الجنس البشري مما كان

مكبلاً به من قيود الذل والهوان وارتقوا به من حضيض العبودية للطواغيت إلى أوج الحرية من كل عبودية إلا لله وحده، فقاموا بدورة تاريخية بدلت الأرض غير الأرض والعقول غير العقول والبشر غير البشر إذ تجللت الأرض بهم لبوس العدل والإنصاف، وازدانت بحلل الحق والحقيقة، وتطهرت العقول من رجس الضلال والأوهام، وارتقى البشر إلى مقامات الملأ الأعلى في عقائدهم وتصوراتهم، وعباداتهم وأخلاقهم.

وهذا كله إنما يرجع إلى صدق الإيمان أولاً، وإلى الإخلاص لله تعالى وحده فيما دعاهم إليه من توحيده والتوحد لأجله، فكما حرصوا على توحيده تعالى ونبذ كل معبودٍ سواه حرصوا على التوحد في ظل راية الحق التي رفرفت عليهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۞ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣].

وقد صبغهم القرآن صبغة جديدة في أخلاقهم وسجاياهم حتى كانوا أمة مثالية، كأنما لم يكونوا من جنس البشر، فقد انتزع من طبائعهم كل ما طبع عليه البشر من الرغبة في الاستئثار وكراهية الإيثار والنزعة إلى الاستعلاء وتحقير الغير والاعتداد بالذات، وقد تحلوا ـ من خلال مداومتهم على الإنصات للنبي ﷺ ومشاهدتهم أخلاقه العالية الرفيعة ـ بنفس الأخلاق التي فطر عليها نبينا ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ وكانت سجاياهم ظلاً لسجاياه ـ صلوات الله وسلامه

عليه ـ على أنه ﷺ «كان خلقه القرآن»[1] كما قالت السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وقد كان القرآن يتنزل بين ظهرانيهم فيتلقونه غضاً طرياً من لسان الرسول ﷺ ويشاهدونه ﷺ وهو يتخلق بكل جزئية مما جاء به كما يحرص على تربيتهم عليه وتعويديهم على تطبيق تعاليمه كاملة غير منقوصة، وقد شاهدوا في تضاعيف آياته التربوية تلك المثل العليا التي تُحَوِّلُ البشر إلى جنس متميز في تصوره، راقٍ في أخلاقه، لطيف في معاشرته، صادق أمين في تعامله فكم تلوا وتدارسوا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١١ ـ ١٢]، فترفعوا على

(١) أخرجه أحمد (١٤٨/٤١ رقم:٢٤٦٠١) و(١٨٣/٤٢ رقم:٢٥٣٠٢)، و(١٥/٤٣ رقم:٢٥٨١٣)، والبخاري في الأدب المفرد (١٦٠/١ رقم:٣٠٨) والطبراني في الأوسط (٣٠/١ رقم:٧٢) والبيهقي في الشعب (٢٢/٣ رقم:١٣٥٩) و(٢٣/٣ رقم:١٣٦٠) والبغوي في شرح السنة (٧٦/١٣ رقم: ٣٤٩٤)، وأخرجه بلفظ قريب مسلم: (٥١٢/١ رقم: ٧٤٦)، وابن ماجة (٧٨٢/٢ رقم:٢٣٣٣) والنسائي (٢٤٤/١ رقم:٤٢٤) و(١٩٩/٣ رقم:١٦٠١) و(٧٩/١٠، وقم: ١١٠٧٣)، والدارمي (٩٢٣/٢ رقم:١٥١٦)، وابن راهوية (٧١١/٣ رقم:١٣١٦) و(٨٢٨/٣ رقم:١٤٧٨) و(٩٥٦/٣ رقم:١٦٦٦) والبزار (٢٩٥/٤ رقم:١٤٦٩) وابن خزيمة (١٧١/٢ رقم:١١٢٧)، وأبو عوانة (٥٥/٢ رقم:٢٢٩٤) وابن حبان (٢٩٢/٦ رقم:٢٥٥١)، وفي مسند الشاميين (١٤٤/٣ رقم:١٩٦٣)، والحاكم (٤٢٦/٢ رقم:٣٤٨١) و(٥٤١/٢ رقم:٣٨٤٢) و(٦٧٠/٢ رقم: ٤٢٢٢).

ما يكون بين البشر من السخرية والتحقير واللمز والتنابز وسوء الظن وتجسس بعضهم على بعض واغتياب بعضهم بعضاً، فلم يجد الشيطان سبيلاً لإغراء بعضهم على بعض وتهييج الفتن بينهم وغرس الأحقاد والسخائم في صدورهم، فكانوا جميعاً تأتلف قلوبهم بألفة الإيمان وتتوحد مشاعرهم بشعورهم أن الأخوة الإيمانية هي أعظم لحمة تشد الإنسان إلى الإنسان حتى تجعله كأنه نفسه وهذا ما جسده لهم النبي ﷺ بقوله: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»(١).

وبجانب الآيات القرآنية كان النبي ﷺ يطبعهم بهذه الأخلاق من خلال توجيهاته النبوية فكانوا ـ بجانب ما يشاهدونه عليه ﷺ من الخلق الرفيع ـ يتلقون منه مشافهة كلمات نورانية تشرق على نفوسهم فتبدد منها ظلمات الطبع وتمحق قبائح سجاياها، فكم وجههم النبي ﷺ إلى ما يستعلون به على أسباب الفرقة والشقاق، ويطبعهم على الألفة والوفاق، كما في قوله: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٥/٢٢٣٨، رقم ٥٦٦٥) . وأحمد (٤/٢٦٨، رقم ١٨٣٨١)، والطبراني في الشاميين (١/٢٩٣، رقم ٥١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/١٠٢، رقم ٧٦٠٩)، ورواه بلفظ قريب: مسلم (٤/٢٠٠٠، رقم ٢٥٨٦)، وأحمد (٤/٢٧٦، رقم ١٨٤٥٦)، وابن أبي شيبة (٧/٨٩، رقم ٣٤٤١٥)

(٢) أخرجه الربيع (١/٢٧٠ رقم: ٦٩٨)، وبألفاظ متقاربة عند مالك (٢/٩٠٧، رقم ١٦١٦)، وأحمد (٢/٢٨٧، رقم ٧٨٤٥)، والبخاري (٥/١٩٧٦، رقم ٤٨٤٩)، ومسلم (٤/١٩٨٥، رقم ٢٥٦٣)، وأبي داود (٤/٢٨٠، رقم ٤٩١٧)، والترمذي (٤/٣٥٦، رقم ١٩٨٨) وقال: حسن صحيح. والطبراني في الأوسط (٨/٢٢٢، رقم ٨٤٦١)، والبيهقي (٧/١٨٠، رقم ١٣٨١٣).

على أن ما كانوا يتلقونه من وحي الله المنزل، وبيان النبي المرسل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، كان صارماً في قطع كل ما يسبب نفرة بعضهم عن بعض، فقد حذرهم الله تعالى مما يكون بين البشر من الاعتزاز بالقوميات والتفاخر بالأنساب والتباهي بالأحساب إذ أنبأهم أن الكل من عنصر واحد وقد خلقوا جميعاً من أب واحد وأُم واحدة، وليس بين أحدهم وبين الله تعالى نسب ولا سبب إلا التقوى، فلا يتفاضلون إلا بها ولا يزدلفون إلى الله تعالى بغيرها كما هو صريح قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهو الذي تضمنه خطاب النبي ﷺ للأُمة في إعلانه الذي ألقاه بعرفة في ذلك المشهد الحافل المهيب بحجة الوداع فكان مما قاله: «ألا وإن الله تعالى قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بالآباء كلكم لآدم وآدم من تراب ليس إلا مؤمن تقي أو فاجر شقي وأكرمكم عند الله أتقاكم»[1].

(١) أخرجه الربيع (١/١٧٠ رقم: ٤١٩)، وفي أخبار مكة للأزرقي (٢/ ١٢١)، وروي بلفظ «إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون عند الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن» عند أحمد (٢/٥٢٣، رقم ١٠٧٩١)، وأبي داود (٤/٣٣١، رقم ٥١١٦)، والبيهقي (١٠/٢٣٢، رقم ٢٠٨٥١). والترمذي (٥/٧٣٥، رقم ٣٩٥٦)، والرافعي (٢/٦٢)، والخطيب (٦/١٨٧).

وجاءت تعاليمه صارمة في منع كل نزعة استغلالية من أي أحد في القضايا التجارية والاجتماعية ومن ذلك قوله ﷺ: «**لا يخطب أحدكم على خطبة أخيهِ، وَلاَ يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ**»[1].

كل هذا من أجل الحفاظ على احترام وحدة الشعور والأحاسيس بين الأمة ووحدة مصالحها، حتى لا تتزاحم فتؤدي إلى الافتراق والنزاع، وبهذا كان التمكين لهذه الأمة وغلبتها على كل عدو فاقتادت الأُمم إلى دين الله الحق وأخرجتها من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

ولم تكن العلاقة بين أولئك الفاتحين المنصورين وبين الأُمم التي انقادت لهم علاقة القوي الغالب بالضعيف المغلوب، وإنما كانت علاقة الأخ بأخيه والحميم بحميمه، فوجد الناس في كنف الإسلام ما فقدوه في جميع الأديان والنظم من قيمة الإنسانية وعرفوا فيه معنى الرحمة والعدل والإنصاف فظل الإسلام يمتد بهذه القيم في الأمم وينتشر في الأرض كما يمتد وينتشر ضوء النهار في الفضاء ويطوي منه سجاف الظلام عندما تشرق عليه الشمس وترسل شعاعها في الآفاق.

وعندما بدأت الأُمة تسير في خط رجعي وترتكس في دركات النزول بتخليها عن المحافظة على هذه المواريث الفكرية والأخلاقية سرى إليها

(١) أخرجه الربيع (٢٠٨/١ رقم: ٥١٦)، أخرجه ابن ماجه (٧٣٤/٢، رقم ٢١٧٢)، وجاء بألفاظ أخرى عند أحمد (١٥٣/٢، رقم ٦٤١١)، وعبد الرزاق (١٩٩/٨، رقم ١٤٨٦٨)، ومسلم (١٠٣٢/٢، رقم ١٤١٢)، وأبي داود (٢٢٨/٢، رقم ٢٠٨١)، والنسائي (٢٥٨/٧، رقم ٤٥٠٤).

الوهن وتفشت في جسمها الأمراض فضعفت بعد قوة وتفرقت بعد اجتماع وذلت بعد عزة وعادت في مؤخرة الأُمم تلهث وراءها لتحظى بالفتات الذي يتساقط من أيديها من موائد فكرها وترفع عقيرتها مفاخرة بترسم خطوات تلك الأمم سائرة على نهجها مخلفة وراءها نهج القرآن ونهج النبي ﷺ ومن سار عليه من أصحابه وتابعيهم.

وبعد أن كان بيدها الحكم والأمر والنهي أصبحت محكومة مأمورة منهية تقاد فتنقاد وتؤمر فتأتمر وتزجر فتزدجر وفرض عليها التفرق والتشرذم واستعلاء كل فريق منها على غيره وأصبح بأسها بينها شديداً في حين أنها تستخذي وتتذلل لأعدائها ولا تجترئ أن ترفع صوتاً أو تصدر إشارة فضلاً عن اجترائها على مواجهة عدو يتربص بها الدوائر ويمعن في إثخانها وتقطيع أوصالها فلكل أحد منها صولة الأسد الهصور عندما يواجه أخاه، وذلة الصفرد الرعديد عندما يلقى عدوه، يصدق على كل منهم قول الشاعر:

أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

وقد أتقن العدو إثارة النعرات الطائفية بين فئاتها، كأنما خلقت لتتفرق وتتمزق فثم نعرات عنصرية، وأخرى مذهبية ما أنزل الله بها من سلطان.

ولا ندري إلى أي مدى ستظل هذه الأُمة في هذا التطاحن تساق إلى أتون الفتنة فتنساق إليها، تصلى نيرانها، وترتمي في لهيبها؟ ومن ورائها من لا هم له إلا تسعير نار هذه الفتنة وإمدادها بالنفط والبارود! وهم رضوا من جانبهم أن يكونوا لها حطباً يستعر به لظاها كلما كاد يخمد،

وأولئك الموقدون يتفرجون على أُمة الإسلام كيف تحفر عن حتفها بظلفها، وتتساوق إلى هلاكها بأقدامها، على أننا على يقين أنها لو وفقت لِرَجْعَةٍ إلى كتاب الله وهدي نبيه ﷺ لانزاحت الغشاوة عن أبصارها وانفض الختم عن أسماعها وقلوبها، وأدركت أنها ليست على شيء من عز الدنيا ولا سلامة الدين، فإن هذه الفتنة التي تطحنها رحاها هي التي أنذرها شرها وحذرها خطرها رسول الله ﷺ حيث قال: «**دب إليكم داء الأُمم قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر، والذي نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم**»[1].

وكم نحن نتطلع إلى اليوم الذي ينتظم فيه هذا الشتات المتناثر من هذه الأُمة استجابة لداعي الله واستبصاراً ببصيرة القرآن واهتداءً بهدي الرسول ﷺ واقتداءً بالسلف الصالح الذين شادوا الأمجاد الشامخة ورفعوا لواء العز الخفاق الذي رفرف على العالم، فاستظل بظله الظليل ونعم بالطمأنينة والاستقرار في كنفه الواسع.

هذا وإن مما نحمد الله تعالى عليه أن نرى وطننا العزيز (عُمان) في منأى عن هياج زوابع تلك الفتن ومأمن من لهيب سعيرها المحرق، فقد

(١) أخرجه الطيالسي (ص ٢٧، رقم ١٩٣)، وأحمد (١٦٤/١، رقم ١٤١٢)، وعبد بن حميد (ص ٦٣، رقم ٩٧)، والترمذي (٦٦٤/٤، رقم ٢٥١٠)، والشاشي (١١٤/١، رقم ٥٤)، وابن قانع (٢٢٣/١)، والبيهقي (٢٣٢/١٠، رقم ٢٠٨٥٤)، والضياء (٨١/٣، رقم ٨٨٩).

توارث هذا الشعب الأبي التسامح والتآخي والترابط والتعاون على الخير أباً عن جد وهذه هي صبغته الحضارية التي تميز بها فاغتبطته الشعوب وتطلع إلى خصائصه العقلاء، وأكبره الحكماء، فكم من عالم مفكر وسياسي حكيم سجل لهذا الشعب شهادة تُعدُّ وساماً على صدره وتاجاً فوق هامته.

فإن كل من درس تأريخ هذا الوطن وشعبه الكريم لا يجد فيما بين أبنائه في أدوار تأريخه أي شقاق ونزاع يعود إلى عصبية مذهبية أو نزعة عرقية وإنما في فترات من التأريخ استعرت فتنٌ قبلية بين قبائله لأهواء كانت في نفوس قيادات القبائل لا لاعتبارات نسبية أو نحوها، إذ كثيراً ما كانت تضطرم نارها بين قبيلتين تتفرعان عن أرومة واحدة، وكان ذلك إبّان تحكم الجهل وانتشاره وتقلص العلم وانحساره وانطواء بقايا أهل العلم على أنفسهم في زواياهم لخفوت صوتهم وسط ضجيج الباطل وحزبه.

وقد انطوت ـ والحمد لله ـ تلك الحقبة السوداء في التأريخ لانتشار الوعي وانفتاح القبائل بعضها على بعض بعد انغلاقها، فكم من قبيلتين كانتا تتناحران كأنهما خصمان لدودان أدركتا بتأثير صحوة جماهيرهما ما كانتا عليه من الضلال المبين فسرت فيهما الهداية سريان إشراقة الصبح في الليل البهيم وعادتا إلى صوابهما طاويتين كل ما انتشر فيهما من الفتن مستبدلتين بها حباً عميقاً وحناناً دافقاً يملآن قلوبهما ويتجسدان في جميع علاقات أفرادهما كما كان بين جناحي الأنصار عندما طلعت عليهم شمس الإسلام فمزقت نصال ضيائها ما كان يجللهم من أغشية الجاهلية وظلماتها.

وقد أصبح الكل ـ والحمد لله ـ يشعر بالسعادة الغامرة بهذه العودة إلى الفطـــرة الزكية وخروج الجميع مـــن مأزق تلك الفتـــن وانطواء عهودها الكالحة المكفهرة غير مأسوف عليها ولا أبقى الله لها ذكراً على الألسن ولا ذكرى في النفوس.

وهذه المزايا التي طبع عليها هذا الشـــعب ترجع ـأولاً ـ إلى فضل الله عليه وتوفيقه له ثم إلـــى حكمة قياداته عبر التاريخ إلـــى زماننا هذا، وما تتحلى به من إخلاص وعدل وحصافة رأي وبعد نظر وشفقة ورحمة بجميع الناس، وإلى خصائص هذا الشـــعب الحضارية التي أهلته لأن يكون قادراً على التحكم في النزعات وعلاج جميع المشكلات علاجاً جذرياً حضارياً باستهداء من تعاليم القرآن وهدي الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ.

وعندما وفـــق الله تعالى حضرة صاحب الجلالة الســـلطان قابوس بن ســـعيد ـ حفظه الله تعالى ـ لقيادة هذا الشـــعب والخروج بـــه من العزلة والانطلاق به إلى ميادين الحضارة المعاصرة الواسعة كان من أهم ما عني به ـ بجانب الرقي المادي والمعنوي بهذا الشعب ـ الحرص على تساوي جميع فئاته في الحقوق الوطنية الخاصة والعامة، واســـتبعاد كل ما يشي بالتمييـــز والتفرقة بين أي أحد وآخـــر؛ فَنَعَمَ الكل بنعمة الأمن وســـعد الجميع بشرف الحرية والاطمئنان فازدادت الأواصر متانة والروابط عمقاً وساد الود والوفاق .

وهذه نعمة يجب علينا حمد الله وشكره عليها، وقد أدركها العقلاء من جميع فئات الشـــعب، فنادوا بوجوب المحافظة على هذه الميزة والسير

على هذا النهج وعدم التفريط في أقل أسبابه كما أدركها العقلاء من أبناء الشعوب الشقيقة والصديقة، فطفقوا يعربون عن إكبارهم لهذا الشعب وإعجابهم بمزاياه وأصالته وسمو فكره وسلامة نهجه.

وإذا كان المعافى يزداد بمشاهدة البلاء إدراكاً لقيمة العافية، ومعرفة بحقها وحق المحافظة على أسبابها، وحرصاً على توقي مناشئ الأمراض، فإن على الشعب العماني ـ وهو يفتح عينيه على ما نكبت به شعوب أخرى من الفتن المستعرة والحروب الطاحنة ـ أن يزداد تمسكاً بالعروة الوثقى التي تجمع الشتات وترأب الصدع وتقضي على الخلاف والشقاق، وأن يحرص على توقي شرر تلك الفتن حتى لا يسقط منه شيء في محيطه الآمن وأن يكون محصناً لنفسه قادرا على عرض سجاياه لتكون متاحة لجميع الشعوب حتى تمكنها الاستفادة منها لتجد الشعوب المنكوبة بهذه الفتن من مبادئ الخير، التي يسير عليها هذا الشعب ويستمسك بحبلها لتتبلور عندها فلسفة التسامح والتآخي والتعاون على نزع فتيل هذه الفتن وإطفاء حريقها حتى تعود إلى التآخي والوئام والشفقة والحنان والبر والإحسان؛ فتنتظم في سلك الوحدة الوطنية الجامعة للشتات الواقية من الفتن، ولتتجلل سرابيل الألفة والوفاق وتخلع عنها لبوس الفرقة والشقاق، فتعود إلى ما كانت عليه قبل الفتن من علاقات أخوية ومودة صادقة وتعاون على ما فيه مصلحة الجميع، فتلتقي أيديهم جميعاً على بناء ما هدمته الفتن من أسوار الأمن وقلاعه، وتجميل ما شوهته من مظاهر الوطنية الزاهية، فإن علاج المبتلى حق على المعافى.

وإذا كان الشعب العُماني بما أوتي ـ من حصافة في الرأي وعمق في الإدراك وتوسط في الأمور بين طرفي التفريط والإفراط ـ مؤهلاً لأن يكون هو الرائد في التعاون مع أشقائه المسلمين على معالجة هذه المشكلات التي مُنيت بها الأُمة، فإن مما يتحتم عليه أن يقبض عقلاء كل فريق منه على أيدي سفهائه لئلا يجروا إليهم ما لا يحمدون عاقبته، فإن اللبيب يعتبر بكل ما يقع على غيره والغُمْرُ من يكون مُعْتبَراً لغيره، ولا شك بأن الجميع في هذا الوطن يصخ أذنيه ما يصل إليهما ولو من بعيد من أصوات انفجارات هذه الفتن، ويزعجه ما يراه بعينيه من آثارها والتهام نيرانها من تلك الشعوب جماعات وأفرادا، وفي ذلك عبرة للعقلاء.

على أن الكل ـ بلا ريب ـ يدرك ما يخطط لهذه الأُمة من عدوها المتربص من خطط جهنمية تَدُعُّها في المهالك دعا، وتأتي على ما تبقى لها من أسباب الألفة ووسائل القوة لتتحول إلى أثر بعد عين وخَبَراً بعد خُبْر، ومما يؤسف له أن توقد تلك النار بأموال هذه الأُمة التي تغدق إلى خزائن عدوها تزلفًا منها إليه وسعيًا إلى إرضائه، ونكاية بأبناء ملتها الذين تشعل فيهم الحرب بتلكم الأموال، وهذا إن دل على شيء فإنه لا يدل إلا على الغباء وانطماس البصيرة، فإن العدو المتربص لا يفرق بين فئة وأخرى من هذه الأمة، وإنما يسعى إلى إبادتها جميعًا، فيا ليت هؤلاء يفيقون من هذه السكرة قبل أن يقول قائلهم: (أُكلتُ لما أكل الثور الأبيض).

وما كان أجدرهم بأن يدركوا أن المال الذي يتلاعبون به إنما هو مال الله استخلفهم الله فيه وائتمنهم عليه، ولم يأذن لهم أن ينفقوه إلا فيما فيه خيرهم ومصلحتهم في الدين والدنيا لا أن يجعلوه سلاحًا فتاكًا يسلمونه

إلى عدوهم ليستأصلهم به، والله تعالى سائل كل أحد يوم القيامة عن إنفاق ماله، كما أنه سائله عن كسبه، ففي حديث أبي برزة الأسلمي وغيره ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**»[1].

وفي هذا كله ما يدعو الشعب العُماني إلى أن يزداد ألفة ومودة ووحدة ووفاقا وأن يحذر أيما حذر من أن يتأثر بدعايات المغرضين أو يستجيب لأصوات المضللين فتسري إليه هذه الأمراض الفتاكة التي أخذت تفتك بأبناء الشعوب المسلمة وترديهم في مهاوي الهلاك المظلمة، فالكل يرى أنه لم يربح أحد من هذه الفتن وإنما عمت الخسارة الجميع، وإن كان ثم مستفيد فهو العدو المتربص، كما أن على هذا الشعب أن يجعل وجهته إلى الله تعالى وحده، ويسعى جهده في رتق فتق هذه الأُمة ورأب صدعها وجمع كلمتها، وأن ينقل إلى جميع الشعوب تجربته في التسامح والوفاق

(١) أخرجه من طريق أبي برزة الأسلمي الترمذي (٦١٢/٤، رقم ٢٤١٧) وقال: حسن صحيح. وأبو يعلى (٤٢٨/١٣، رقم ٧٤٣٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٢/١٠)، وأخرجه من طريق أبي الدرداء الطبراني في الأوسط (٧٤/٥، رقم ٤٧١٠)، ومن طريق معاذ أخرجه الطبراني (٦٠/٢٠، رقم ١١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٨٦/٢، رقم ١٧٨٥)، والخطيب (٤٤١/١١)، وابن عساكر (١١٨/٣٥) . وأخرجه أيضاً: ابن أبى شيبة (١٢٥/٧، رقم ٣٤٦٩٤)، والديلمي (٧٤/٥، رقم ٧٤٩٨)، وأخرجه من طريق ابن مسعود الترمذي (٦١٢/٤، رقم ٢٤١٦) وأبو يعلى (١٧٨/٩، رقم ٥٢٧١)، والطبراني (٨/١٠، رقم ٩٧٧٢)، وابن عدى (٣٥٣/٢، ترجمة ٤٨٢ الحسين بن قيس أبو على الرحبي)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٨٦/٢، رقم ١٧٨٤)، والخطيب (٤٤٠/١٢)

والألفة والوئام ليتحقق ـ بعـون الله تعالى وتوفيقه ـ جمع كلمة الأُمة في ظل وحدة إيمانية تستمد هديها من كتاب الله تعالى ومن سنة نبيه ﷺ ومن منهج السـلف الصالح، فإن خير الناس من جمع الله بـه قلوب الناس، فأتلفت على يديه بعد تنافرها، واتحدت بدعوته بعد تشـتتها، وعوفيت بعلاجه من أمراضها وعللها.

وإن خير وسيلة لذلك ما يلي:

أولاً: الدعوة إلى التمسك بكتاب الله وسُنَّة نبيه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ

ففيهما النور والشـفاء والبصيرة والهدى وبيان ما خفي وكشـف ما التبس، قال تعالى في وصف كتابه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقـال: ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونـس: ٥٧ ـ ٥٨]، وقـال: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ۝ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمـل: ١ ـ ٢]، وقال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [لقمان: ٢ ـ ٣]،

وتوعد كل من أعرض عنه بأعظم الوعيد كما في قوله: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩ ـ ١٠١]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وحذر نبيه ﷺ من طاعة من أغفل قلبه عن هذا الذكر في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وجاء في الحديث من طريق علي ـ كرَّم الله وجهه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ ـ ٢]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»[1].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢٥/٦، رقم ٣٠٠٠٧)، والدارمي (٥٢٦/٢، رقم ٣٣٣١)، والترمذي (١٧٢/٥، رقم ٢٩٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٥/٢، رقم ١٩٣٥)، وجاء بألفاظ أخرى بمعناه عند أحمد (٩١/١، رقم ٧٠٤)، والدارقطني في الأفراد (١٩٤/١ رقم ٢٦٩)، والبزار (١٢٥/٦، رقم ٨٣٤)، وأبو يعلى (٣٠٢/١ رقم ٣٦٧)، وابن أبي شيبة (١٢٥/٦، رقم ٣٠٠٠٧)، والترمذي (١٧٢/٥، رقم ٢٩٠٦).

وهو ـ وإن قيل ما قيل في سنده ـ فإنه تشرق أنوار النبوة من جوانب عباراته، فلا يُرتاب أنه يشرق من مشكاتها.

وخذ بكتاب الله حسبك إنه ... دليل مبين للطريق خفير
فما خاب من كان القرآن دليله ... وما ضل من سير القران يسير
تمسك به في حالة السخط والرضى ... وطهر به الآفات فهو طهور
وحارب به الشيطان والنفس تنتصر ... فكافيك فيه عاصم ونصير

وكم من نصوص في كتاب الله تعالى تؤكد أن طاعة النبي ﷺ فريضة على الأمة كطاعته تعالى كقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وهو صريح في أن مخالفة أمر الرسول ﷺ كمخالفة أمر الله تؤدي إلى الكفر ـ والعياذ بالله ـ وهو كفر النعمة، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله في المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ

ٱلْمُبِينُ ﴾ [التغابن: ١٢]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠]، وأتبعه قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١ ـ ٢٢]، وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۞ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۞ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٤٧ ـ ٥٢]، ثم قال بعد ذلك: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦]، وقال: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وهذه الآيات جميعاً صريحة في أن الخير كله معقود باتباع الرسول بعد طاعة الله ﷻ، وأن طاعته ﷺ جزء من طاعة الله، فمن أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، كما أنها صريحة في الوعيد الشديد لمن أعرض عن طاعة الله أو عن طاعة رسوله، وكل ذلك نص في وجوب طاعته ﷺ.

ولم يدل دليل قط على أن طاعته ﷺ مرهونة بحياته وأنه بعدما قبضه الله تعالى إليه تعلق طاعته، فإن هذا من أقوال الذين يصدون عن القرآن ويعرضون عما جاء به عليه الصلاة والسلام، وهو مخالف لإجماع الأُمة جميعاً، وما طاعته بعد وفاته إلا بالرجوع إلى سـنته والبحث عن هديه من خباياها، وذلك يعني أن السُّـنَّة الثابتة عنه إنما هي قرينة القرآن، ومن أعرض عنها فقد أعرض عن القرآن.

ثانياً: الإخلاص لله تعالى في القول والعمل

فإن الإخلاص مناط الخلاص في الدنيا والآخرة، ومعقد النجاح في الأعمال والأقوال، وهو أن يجعل الإنسان وجهته إلى الله تعالى ولا يلتفت إلى أحد من خلقه، قال تعالـى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وجاء في الكتاب العزيز ما يشير إلى أن الالتفات إلى الخلق من ضروب الشرك ـ والعياذ بالله ـ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهـف: ١١٠]، وهو المعبر عنه بالشرك الخفي، كما قال العلّامة أبو مسلم رحمه الله:

وراقـب وصايا الله سرا وجهرة ففـي كـل نفـس غفلة وفتـور
وجرد على الإخلاص جدك في التقى ففـوقك بالشـرك الخفي خـبير

وعن النبي ﷺ قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشـرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[1].

(١) أخرجه أحمد (٤٦٦/٣، رقم ١٥٨٧٦)، والترمذي (٣١٤/٥، رقم ٣١٥٤) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (١٤٠٦/٢، رقم ٤٢٠٣)، والطبراني (٣٠٧/٢٢، رقم ٧٧٨)، والبيهقي في شـعب الإيمان (٣٣٠/٥، رقم ٦٨١٧) . و ابن حبان (١٣٠/٢، رقم ٤٠٤).

وجاء عنه: «قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1].

ثالثاً: الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فإنهما معقد الترابط بين المؤمنين والمؤمنات فبقدر ما يحرصون عليهما تتوثق الصلة بينهم ويقوى الرابط الذي يشد بعضهم إلى بعض، حتى تكون قلوبهم كقلب واحد، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، وأنتم ترون كيف قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الآية على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وما ذلك إلا لأن المحافظة على جميع واجبات الدين ـ ومن بينها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ـ إنما تتحقق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي سياق الأمر بالاتحاد والوفاق والتحذير من الفرقة والشقاق في سورة آل عمران جاء التأكيد على ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متوسطاً الآيات التي تضمنت هذا التوجيه الرباني، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وذلك مشعر ـ بلا ريب ـ أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسدان جميع نوافذ الشيطان التي يلج منها إلى المجتمعات فيمزق وئامها ويشتت جماعاتها،

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢٨٩، رقم ٢٩٨٥)، وابن ماجه (٢/١٤٠٥، رقم ٤٢٠٢).

ذلك لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقضيان على أسباب البغضاء ويطفئان سعير كل فتنة، وينتزعان من النفوس جميع السخائم والأحقاد باجتثاث دواعيها، فتتوحد القلوب وتأتلف النفوس وتنسجم المشاعر حتى يكون الكل كما قال ﷺ: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»[1].

رابعاً: قطع الطريق على جميع سعاة الفرقة ورادة الشقاق

الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ولا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار إلا بتسعير نار الفتنة وإغراء الناس على أن يصلوها ليكونوا حطبها الذي تأتي عليه، فتجعله رمادا تذروه الرياح، فتبيد خضراؤهم وتخرب ديارهم، وتتلاشى ريحهم ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

خامساً: إشاعة ثقافة الحب والوئام وتربية المشاعر على الرحمة والحنان

فبذلك تغمر المجتمع موجة من مشاعر الانسجام والألفة والأنس، وتتلاشى أسباب النفرة والشقاق والوحشة، وتتطهر القلوب من الغل والحسد والكراهية، وتتبعها الأفعال فتتجاوب مع هذه المشاعر وتأتلف بهذه الألفة.

---

(١) سبق تخريجه.

سادساً: إنصاف الغير من النفس وحب الخير للجميع

فإنهما سبب إطفاء نار البغضاء وعطف القلوب ببعضها على بعض وتحكم الألفة في النفوس حتى لا يعود بين أفراد المجتمع أي سبب للنفرة أو الشقاق.

سابعاً: التأدب بآداب الإسلام والتخلق بأخلاقه

فإن ذلك ضمان لصفاء القلوب وعدم تكدرها بأي شيء مما يورثها الظغينة أو يشيع بينها سوء الظن، أو يحملها على التقاطع، وصدود بعضها عن بعض.

ثامناً: توريث جميع الأجيال الآتية هذه القيم

لينشأ عليها الصغير ويهرم عليها الكبير حتى تكون جميع الأجيال حلقات مترابطة موصولا بعضها ببعض، يتمم اللاحق منها ما بدأه السابق، ويبني على ما أسسه.

تاسعاً: تطبيق شريعة الله العادلة

فإنها الحصن الحصين والسور الواقي من كل شر، وهي ضمان العدل والإنصاف للقوي والضعيف والقريب والبعيد، وهي من عند الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض، فلذلك كانت مبرأة من كل ما يطرأ على قوانين البشر من النشاز والاضطراب.

وبما أن المؤمن مفطور على حب الخير لغيره فإن على هذا الشعب أن يشيع هذه الثقافة الإيمانية الأصيلة بين شعوب أمة الإسلام لتهب جميعا

من نومها ولتتعاون جميعاً على ردم الهوة فيما بينها، واستئصال كل ما يؤدي إلى تفرقها ووهنها، وإطفاء كل فتنة سعرت بأيدي أبنائها أو أعدائها حتى لا يكون الدين إلا لله، ولا تكون الوجهة إلا إليه ولا الاحتكام إلا إلى كتابه وسُنَّة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته

أخوكم في الإسلام

أحمد بن حمد الخليلي

٢٠ شوال ١٤٣٥هـ